

بسم الله الرحمن الرحيم عالمية الإسلام وعولمة الغرب

عالمية الإسلام تعني أن الإسلام لم يكن يوماً للعرب، ولم يكن القرآن يوماً لقريش فهو ، منذ اليوم الأول سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين، أو يخاطب قريشاً، أو يخاطب العرب أجمعين، أو يخاطب الناس كافة، إنما يخاطبهم بمبدأ واحد؛ ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد، إلى العبودية لرب العباد بل إن هذه الحقيقة هي فحوى دعوة الأنبياء جميعاً. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب إن موضوعه هو الإنسان.. أي إنسان.. ومجاله هو الأرض.. كل الأرض، إن الله سبحانه ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتقدون الإسلام وحدهم.. إن الله هو رب العالمين وهذا الدين يريد الله منه أن يرد العالمين إليه؛ وأن ينتزعهم من العبودية للبشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر.. إلى العبودية لخالق البشر، وهذه هي العبادة التي لا يمكن أن تكون إلا لله، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله، مهما ادعى أنه من هذا الدين بمكان. قال المغيرة بن شعبة لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسأله قبل المعركة: ما الذي جاء بكم؟ فيجيبه: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وقد أكدت هذه الحقيقة آيات القرآن الكريم، كما بينتها الأحاديث النبوية والسلوك النبوي الشريف، وهي كثيرة نستعرض بعضاً منها: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أما العولمة كما يريدونها، ويروج لها دعاتها لا تعدو أن تكون تعبيراً معاصراً عن نزعة تسلطية قديمة، صاحبت كل قوة غاشمة على مدار التاريخ، إنها تضيء طلاءً من الذهب على الأغلال الحديدية، وتتوارى خلف أقمعة زائفة من العبارات الجذابة، والشعارات البراقة، كالعدالة، والديمقراطية، والحرية، والسلام العالمي، والتعايش السلمي، وحقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب، فهي علم قديم في أنية جديدة. ولعل من أبرز مظاهر هذه العولمة انهيار السودود بين الحضارات والثقافات وفرض الهيمنة الغربية في مختلف المجالات، سياسة، واقتصاداً، وإعلاماً، وفكراً؛ توطئة للاستيلاء على ثروات الشعوب، وشل قدراتها الوطنية، ومسح هويتها، وخصوصياتها الحضارية، وتحويل أسواقها المحلية إلى أسواق استهلاكية، تفتح الأبواب على مصاريعها أمام الشركات الأجنبية لترويج منتجاتها، وتراكم أرباحها، وإذا كان الأسلوب التقليدي لدى القوم قد تمثل في حمل الآخرين على فعل ما تريد، ولو باستخدام القوة المسلحة، فإن الأسلوب الأمثل اليوم يتمثل في حمل الآخرين

على إرادة ما تريد، والإقبال عليه عن طواعية واختيار وهذا يتوقف بطبيعة الحال على حسن تسويقه، وجاذبية عرضه من ناحية، كما يتوقف على حجم الإغراء الذي تحمله الجوائز التي تقدم ثمناً لمن يتعاونون مع القوم من ناحية أخرى. المشكل القائم حالياً لا يكمن في مبدأ العولمة، وإنما يكمن في نوعية هذه العولمة وخصوصياتها، وبنائها، فعولمة القطب الواحد فيها خصوصيات القطب القوي الواحد كالاختكار، وإرادة الهيمنة، وسلوكية الكيل بمكيالين، بعيداً عن روح المشاركة، والتنافس الحر الشريف، ومن خصوصيات القطب الواحد قانون تضخيم الأرباح، ولو على حساب الأرواح وعدم خضوع هذا النظام للشرائع الإلهية. والنظام العالمي الجديد هو نظام دولة أو بضع دول على هذه الكرة الأرضية أما ما تبقى منها فهو دول سابعة في هذا النظام الغريب، بعضها يعوم على السطح بصعوبة وعليه أن يثبت، وباستمرار حسن النية، والطاعة، والالتزام، ومع ذلك فهو دائماً مخطئ ومطلوب منه أن يكفر عن ذنوبه، وبعضها الآخر غارق في القاع إلى أجل غير مسمى وأصبح كل ما يتماشى مع رغبات تلك الدول الكبرى ديمقراطية وعدلاً، وكل ما يحقق مصالحها هو حقوق إنسان، وحضارة بشرية، ولم يعد مستغرباً أن تصدر لوائح تحدد فيها قيمة الإنسان لدى شعب، وما يقابلها لدى الشعوب الأخرى كأسعار العملات.

ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام ضرورة الفصل بين العالمية التي جاءت بها شريعة الإسلام، والتي تبنى على الوازع الديني، حيث الإسلام دين سماوي، وليس موضوعاً من الموضوعات البشرية، وما تحمله من رسالة حب ورحمة إلى العالم أجمع، وبين العولمة وما تعنيه من الهيمنة واستلاب الآخرين لحساب قوى الاحتكار العاتية، بل لحساب حفنة من المتضلعين في دماء الآخرين وأموالهم. إن العالمية الإسلامية التي تحيل العالم إلى قرية كونية واحدة، يتمتع الإنسان فيها بحق الاختيار، ويسود فيها البر والقسط، ويتقيئ الإنسان فيها ظلال العدل والرحمة، وتسان فيها حرمان المخالفين وحقوقهم، هذه العالمية يجب ألا تلتبس في ذهننا بالعولمة التي يدعو لها حملة المشروع الغربي، والتي تحيل العالم إلى غابة عالمية واحدة، يأكل القوي فيها الضعيف ويزداد فيه الأغنياء غنى، والفقراء فقراً.

إن الاتجاه إلى العالمية برسالة حضارية عادلة لا حرج فيه، ولا تشريب على دعائه، ولكن الحرج كل الحرج إنما يكمن في روح الهيمنة، والجشع، والأنانية، والابتزاز الذي تحمله هذه العولمة الجامحة، كما يدعو إليها أباطرة العولمة، وقراصنتها من غير ضابط من دين أو خلق، فليس الحرج في التوجه إلى العالمية في ذاته، والتعامل مع الكيان البشري كأمة واحدة، وإنما يكمن الحرج في المشروع الذي يحمله القائمون على هذا التوجه، عندما لا يرون في الآخرين إلا أحجاراً على رقعة الشطرنج، يعبثون بمقدراتهم ومصائرهم كما يشاءون الأمر الذي لا تقام به دنيا، ولا يصلح به دين، ولا يزداد به العالم إلا شقاءً فوق شقاء.

إن هذه العولمة في إطارها اللاديني الجامح لتحمل في طياتها بذور إخفاقها وعوامل انهيارها؛ فإنه لا دوام لظلم، ولا بقاء لتعسف ولا جور، لقد حدثنا القرآن الكريم عن دول قامت، ثم

زالت، وعن حضارات صالت، ثم انهارت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال أحد حكماء الرومان حين وقف على أطلال روما: إن أول رجل تسبب في خراب الإمبراطورية هو الذي بدأ يقدم لها الأسلاب والغنائم؛ لأنه هو الذي أثار لدى أهلها شهوة النهب، والسيطرة، وحرك شياطين الأثرة، والأنانية الكامنة وراء جلودهم، وقديماً قال نابليون، إن الإمبراطوريات تموت دائماً بمرض التخمة، أي أن جوفها يعجز عن هضم ما تلتهمه من الأقاليم والشعوب.

إننا - نحن المسلمين - نحمل مشروعاً حضارياً رائداً، لُحِمته الربانية، وسُداه البر والقسط، نبذله إلى العالمين ما داموا لا يقاتلوننا في الدين، ولا يصادرون علينا حقنا في أن نبسط دعوتنا إلى الآخرين. فليس على دعاة الدين الحق والرسالة الخاتمة من حرج أن يطوفوا بدعوتهم في المشارق والمغرب، يوطئون للحق مهاداً، وينشرون له أعلاماً في إطار قاعدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وتحت خيمة الربانية التي ترعى حقوق الموافقين والمخالفين، حتى يتفياً العالم ظلال هذه الرحمة العامة، يفيء إليها من هجير الظلم، ورمضاء الأثرة، والجشع، والأنانية ويجد له موقعاً في سفينة الإسلام، التي تمخر به عباب هذه الفتن المتلاطمة؛ حتى ترسو على شاطئ النجاة في الآخرة.